الكتاب الثاني والعشرين

كتاب «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»

للشيخ نديم الجسر
تحليل وعرض أ.د. أحمد فؤاد باشا

* الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣ (١٩٦٩)، ط٢ (١٩٦٣)، ط١ (١٩٦١).

* الشيخ نديم حسين الجسر (١٨٩٧- ١٩٨٠)، مفتي طرابلس التي ولد بها لأسرة مصرية الأصل، تلقى علومه الأولى على يد والده الشيخ حسين الجسر، وبعد وفاة والده كفله شقيقه الشيخ محمد الجسر الذي كان يعتبر من أبرز رجال السياسة في طرابلس. أنهى دراسته في حمص، ثم أكملها في بيروت لدراسة الحقوق، وبعدها التحق بالعمل في سلك القضاء وتولى عدة مناصب منها مستشار بمحكمة الاستئناف، عضو بمجلس العدل والقضاء الشرعي، وبه قام بتنظيم دائرة الأوقاف الإسلامية، انتخب نائبًا عن مدينة طرابلس بمجلس النواب اللبناني عام ١٩٥٧م وانتخب مفتيًا لشمال لبنان، وعضوًا في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

والشيخ نديم الجسر له عديد من المؤلفات المتنوعة ما بين المخطوطات والكتب، وله آراء نقدية في النثر والشعر، ودور الأدب في المجتمع والحياة بشكل عام(*).

(*) من مؤلفاته: حديث ليلة (مخطوطة كتبها عام ١٩٢٦م)- شرح قانون الجزاء- الموجز في الفلسفة العربية- فلسفة الحرية في الإسلام- أرجوزة في علم المواريث- الإسلام في العالم المعاصر- القرآن والسنة في التربية الإسلامية- شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين- ركائز التفكير الإسلامي-قانون السببية عند الغزالي- ألفية الجسر في علم أصول الفقه.

لكن يبقى كتابه الأهم «قصة الإيمان» واحدًا من أهم الكتب التي أثرت في أجيال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، من حيث إنه يسلك طريقًا سهلًا وميسرًا إلى تأسيس اليقين الإيماني على هدى وبصيرة، خاصة بالنسبة لأولئك الحيارى الذين بهرتهم قضايا العلم والفلسفة وهم بمعزل عن القيم الإيمانية الهادية في الدين الإسلامي الحنيف.

ويقول الدكتور زكي نجيب محمود في تقريظ هذا الكتاب: «..هكذا يكون اعتصار الثقافة الطويلة العريضة العميقة التي يتآخى في ثناياها ورع الإيمان ومنطق العقل، نعم هكذا يكون اعتصار الثقافة الواسعة الزاخرة في صفحات كتاب لست أشك لحظة في أنه قد أصبح ركنًا من أركان إنتاجنا الفكري في هذا العصر، لأنه قد بلور في صياغة فنية رائعة وجهة أنظارنا جميعًا، وأعني بها حسن الربط بين عقيدة نعتز بها وعقل ليس لنا من مجاراة أحكامه».

مضمون الكتاب والقدر الذي يمثله من حيث تأثيره:

هذا الكتاب قال عنه الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، وقت أن كان عميدًا لكلية أصول الدين في رسالة وجهها إلى المؤلف: «أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس -لبنان- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فإن كتابكم «قصة الإيمان» يتمثل فيه أسلوب الأديب، ومنطق الفيلسوف، ووجدان المؤمن فمن أجل ذلك قررنا منذ بدء العام الدراسي ١٩٦٤- ١٩٦٥م أن يكون فيه امتحان القبول للدراسات العليا شعبة العقيدة والفلسفة وشعبة الدعوة والإرشاد لعام ١٩٦٥- ١٩٦٦م. وأعلنا ذلك للطلبة في أول إبريل ١٩٦٥م حتى يتاح لهم الوقت الكافي للاستعداد. وإنه ليسعدنا أن نعرف سيادتكم بذلك تقديرًا للعلم وأهله والله يجزيكم عن الدين خير الجزاء. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقال عنه الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: «قضيت مع هذا الكتاب بضعة أيام

كانت سياحة عقلية عميقة الأثر بعيدة المدى، عدت بعدها إلى نفسي وأنا فوار القلب واللب بمشاعر اليقين ولوامع المعرفة. ثم أحسست بأن هذا الكتاب ليس تراثًا فكريًا خاصًا قدر ما هو جهد خالص لنصرة الحق وإعلاء كلمة الله فقررت أن أشرك معي في الاطلاع عليه علماء المساجد في القاهرة كي يستبينوا ما رسم من مناهج اليقين وطرائق الوصول إلى الله جل جلاله...».

وقال عنه غبطة البطريرك تيودسيوس السادس: «بتلهف كنا نتابع تلاوة السفر النفيس الذي خطته براعتكم الفياضة، وسبرتم فيه أغوار المعرفة، لتلقطوا منها كل درة يتيمة، وحجة دامغة، لإزالة الشك باليقين، والإلحاد بالإيمان، والإتيان بما لم يستطعه إلا القليلون من المتمسكين بعروة الإيمان الوثقى، والراسخون في العلم».

أما قصة الكتاب المثيرة فيرويها المؤلف على لسان «حيران بن الأضعف البنجابي» الذي ترجع جذوره البعيدة في الأصل إلى مصر، فهو من آل المائي الذين نزح بعضهم من مصر إلى ديار الشام، وبعضهم إلى الحجاز. ومن الحجاز ساقت الأقدار جدّ أبيه إلى الهند واستقر فيها.. وتلخص الدكتورة بنت الشاطئ في مقال لها بجريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ٢٧/ ٧/ ١٩٦٢م مضمون هذه القصة التي تبدأ من حيث يبدأ الصراع الموهوم بين العلم والدين، فتقول: «شاب تربى تربية دينية، وأمضى طفولته الناعمة وصباه الطري، في حضانة والد شيخ تقي، ثم التحق بجامعة أمرها موكول إلى نفر من المشايخ الجامدين. وهناك تطلعت نفسه إلى المعرفة فبدأ يسألهم عن سر الوجود وكنه الخلق، فلا يجيبونه بغير الزجر والصد والوعيد، ولما يئس منهم مضى يلتمس الجواب عن أسئلته في كتب الفلاسفة، فلم تزده إلا حيرة وضلالًا. وبلغت المحنة ذروتها فطرد من الجامعة كيلا يعكر صفو المشايخ وراء أسوار جمودهم، ولا يسمم عقول زملائه الطلاب، بلوثة الشك وإلحاد التفلسف. وقال له أبوه ناصحًا: «لقد كابدت قبلك يا بني كرب الشك ووطأة

الحيرة، ثم كانت نجاتي منها بكلمة سمعتها من شيخي العالم الفقيه الفيلسوف: أبي النور الموزون السمرقندي: «إن الفلسفة بحر على خلاف البحور، يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه، والأمانة والإيمان في لججه وأعماقه». فدعْ عنك يا بني هذه القراءات الناقصة المشوشة البتراء، فإنها شديدة الخطر على عقلك وإيمانك، تجعلهما على طرفي نقيض».

وشد «حيران» رحالة يلتمس الشيخ «أبا النور» في سمرقند، وكان قد اعتزل الناس في شيخوخته، منقطعًا إلى الله متفرغًا للزهد والتعبد، واحتال «حيران» حتى اقتحم على الشيخ عزلته، ومن ثم بدأت رحلته معه يخوض به بحار الفلسفة ومجاهل العلم، ويحلق به في آفاق الدين على معارج من الفكر الطليق والإقناع الحر، حتى أوصله بعد جهد ومشقة إلى منطقة الإيمان، هناك حيث تنجلي الشبهات وتنجاب الشكوك، ويتجلى نور الحقيقة ساطعًا، فيمحق ظلمات الزيغ والحيرة والضلال..

في هذه الرحلة الشاقة المجهدة، وعلى طول المسرى في متاهات الوجود وغيابات الكون التماسًا للهدى، كان الفتى حيران يسأل ويجادل، والشيخ «أبو النور» يصغي ويجيب، لم يحاول مرة أن يزجر سائله أو ينهره، ولا أبدى بادرة ملل أو ضجر، مما ينفض الفتى من شكوك أرهقت عقله، وعصفت بسلامه النفسي.

وفي هدأة الليل، كان الحوار بينهما يمتد حتى مطلع الفجر ليعود فيستأنف إذا ولى النهار وبرفق ومثابرة واحتمال، أخذ الدليل بيد فتاه ليسير مع الباحثين عن الله من قديم الآباء، ثم حلق به مصعدًا إلى قمة «تلاقي العباقرة» حيث يلتقي عظام الفلاسفة، وأفذاذ العلماء، وأكابر المشايخ عند مشارق الإيمان بأن الحق واحد، وإن تعددت سبل البحث عنه وطرق الدليل عليه، ولا تختلف عليه العقول عن قوم يتفكرون ويعلمون، ويوقنون، ويؤمنون، كما وصفهم القرآن الكريم.

١- وكان مما قاله الشيخ المعلم لمريده الفتى: «وارحمتاه لكم يا شباب هذا

الجيل.. أنتم المخضرمون بين مدرسة الإيمان من طريق النقل، ومدرسة الإدراك من طريق العقل..... قشورًا من الدين، وقشورًا من الفلسفة، فيقوم في عقولكم، أن الإيمان والفلسفة لا يجتمعان، وأن العقل والدين لا يأتلفان، وأن الفلسفة سبيل الإلحاد.. وما هي كذلك يا ولدي، بل هي سبيل للإيمان بالله من طريق العقل الذي بُني عليه الإيمان كله...».

٢- قال الشيخ المعلم لمريده الفتى: «الفلسفة تريد أن تعرف يا حيران حقيقة كل شيء وكنهه، وأصله وغايته، ولا تكتفي بالظواهر، بل تريد النفوذ إلى البواطن، ولا تكتفي بهذا العالم المحسوس، بل تريد أن تعرف ما وراءه، وما كان قبله، وتريد أن تعرف من الذي خلقه، ومن أي شيء خلقه، ومتى خلقه، وتريد أن تعرف ما هو هذا الخالق، وما ذاته، وما حقيقة صفاته، وما هو هذا الإنسان وما حقيقته، وما هو عقله، وكيف يتم إدراكه، وما مبلغ هذا الإدراك من الصحة، وما هو الخير، وما هو الجمال، ولِمَ يكون الخير خيرًا، والجميل جميلًا، إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا تنتهي، سعيًا وراء معرفة المبادئ الأولى لكل شيء، ولذلك قالوا في تعريف الفلسفة: إنها النظر في حقيقة الأشياء، وقالوا: إنها علم المبادئ الأولى، وقالوا غير ذلك، أما أنا، فإني أعرفها لك بأنها «محاولة العقل إدراك كنْه جميع المبادئ الأولى».

والفرق بين العلم والفلسفة. أن العلم يكتفي بدرس ظواهر هذا الكون، ونظمه ونواميسه أما الفلسفة فتبحث في أصل الكون، وعلته، وحقيقته، ومن البحث في الكون وعلته تكونت (فلسفة الوجود)، ومن البحث في العقل وكنهه وقدرته تكونت (فلسفة المعرفة)، ومن البحث في كنه الخير والشر والجمال والقبح تكونت (فلسفة القيم).. والمسألة الميتافيزيقية لا يمكن درسها إلا على ضوء مبحث المعرفة. فمبحث المعرفة إذن يكون خادمًا لمبحث الوجود، ووسيلة لإدراك الحق في المسألة الميتافيزيقية التي هي جوهر الفلسفة في البحث عن الله».

٣- وقال الشيخ المعلم لمريده الفتى عن فلاسفة الإغريق الذين وصفهم بأنهم مفكرون يبحثون عن الإله الحق: «نعم إنهم كافرون بآلهة اليونان، وأما الإله الحق فإنهم يبحثون عنه فمنهم من يهتدي إليه، ومنهم من يعجز عقله عن تصوره، ومنهم يقوده العجز إلى الضلال وسوف ترى]يا حيران[أن آراءهم، فيها ومضات من نور الحق، في ظلمة حالكة من الإبهام والغموض والتناقض والشك والسفسطة».

٤- وقال الشيخ المعلم لمريده الفتى عن الفلاسفة المسلمين: «إنهم من أعظم المؤمنين بالله، ومن أصدقهم برهانًا على وجود الله، وكيف لا يكونون كذلك، وهم قد جمعوا إلى إيمان الوحي الصادق، إيمان العقل السليم، نورًا على نور، فلو لم يكن لدينا دليل على صدق إيمان الرازي إلا قوله: إن وجود العقل في بعض الكائنات الحية وقدرتها على إتقان الصنعة يدل على وجود خالق أحسن كل شيء خلقه، لكفانا.

٥- وعندما سأل الفتى المريد شيخه المعلم عن الفلسفة: هل تكون الفلسفة التي هي البحث عن الحق، في حنايا قصة من نسج الخيال- يقصد قصة حي بن يقظان؟ أجاب الشيخ بقوله: «ليس في قصة حي بن يقظان من الخيال إلا اسم البطل والمسرح، يا حيران. ولو أبدلت كلمة «حي بن يقظان» بكلمة «العقل»، واعتبرت أن الجزيرة النائية هي أرضنا التي نعيش عليها، لانقلبت القصة تاريخًا صحيحًا. ليس فيه أثر للخيال، إلا حيث يتخلى «العقل» (البطل) عن دوره... لقد أراد ابن طفيل أن يبين في قصته الحقائق الآتية:

أ- المراتب التي يتدرج بها العقل، في سلم المعرفة، من المحسوسات الجزئية إلى الأفكار الكلية.

ب- إن عقل الإنسان قادر من غير تعليم ولا إرشاد، على إدراك وجود الله بآثاره في مخلوقاته، وإقامة الأدلة الصادقة على ذلك.

ج- إن هذا العقل قد يعتريه الكلال والعجز في مسالك الأدلة عندما يريد

تصور الأزلية المطلقة، والعدم المطلق، واللانهاية، والزمان، والقدم، والحدوث، وما شاكل ذلك.

د- إن العقل سواء ترجح لديه «قدم العالم أو حدوثه» فإن اللازم من كل واحد من الاعتقادين شيء واحد، وهو وجود الله.

ه- إن الإنسان قادر -بعقله- على إدراك أسس الفضائل، وأصول الأخلاق العملية، والاجتماعية، والتحلي بها، وإخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل، من غير إهمال لحق الجسد، أو تفريط فيه.

و- إن ما تأمر به الشريعة الإسلامية وما يدركه العقل السليم بنفسه من الحق والخير والجمال، يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف.

ز- إن الحكمة -كل الحكمة- هي فيما سلكه الشرع من مخاطبة الناس على قدر عقولهم دون مكاشفتهم بحقائق الحكمة وأسرارها -وإن الخير كل الخير للناس، هو في التزام حدود الشرع، وترك التعمق.

ولما لاحظ الشيخ آيات البشر على وجه حيران قال له: الآن بدأت تباشير الفجر يا حيران.. فجر إيمانك بأن الفلسفة والدين لا يتناقضان عند أهل العقول السليمة.

٦- ويقول الشيخ عن الزمن: «إن الزمان لم يكن له وجود، ولا يمكن تصور وجوده، قبل خلق العالم.. هل الزمان شيء سوى الفكرة التي نتصورها من تعاقب الحوادث في العالم؟ وإذا لم يكن عالم ولا حوادث تتعاقب، فكيف نتصور الزمان؟ وهذا ما أدركه الغزالي، وأدركه من بعده عمانوئيل كانت.. فهل أخذ الثاني عن الأول، أم هو الحق الذي تتلاقى عليه العقول السليمة يا حيران؟».

٧- ويقول الفتى «حيران» -أسمعني يا مولاي بعض ما يقوله ابن رشد في

طريقة الاستدلال التي يراها أبسط وأسهل وأكثر يقينًا في الدلالة على الله. فيجيب الشيخ المعلم، نقلًا عن كتاب ابن رشد «الكشف عن مناهج الأدلة» قوله: «الطريق التي نبّه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها، إذا اُسْتُقرئ الكتاب العزيز، وجدتها تنحصر في جنسين: أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنُسِمّ هذا (طريق العناية). والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل، ولنسم هذه (دليل الاختراع) فأما الطريقة الأولى فتبنى على أصلين: أحدهما أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الإنسان. والأصل الثاني أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك، مريد إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق (يعني بالمصادفة). فأما كونها موافقة لوجود الإنسان، فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له، والمكان الذي هو فيه أيضًا وهو الأرض، وكذلك تظهر أيضًا موافقة كثير من الحيوان له، والنبات والجماد، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار]والهواء[وكذلك أيضًا تظهر العناية في أعضاء البدن، وعضاأاأعضاء الحيوان، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده. وبالجملة فمعرفة منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات.

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات كله، ووجود السماوات.. وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات. ولذلك كان واجبًا على من أراد معرفة الله، حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]..».

ثم يقول ابن رشد: «وتبين أن هاتين الطريقتين (يقصد دلالة العناية ودلالة الاختراع) هما بأعيانهما طريقة الخواص، وأعني بالخواص العلماء، وطريقة الجمهور، وإنما الاختلاف بين المعرفتين، في التفصيل: إن الجمهور يقتصرون، من معرفة العناية والاختراع، على ما هو مُدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على ما يُدرك من هذه الأشياء بالحس، ما يُدرك بالبرهان...»

٨- عرض الشيخ المعلم لآراء ومذاهب العديد من الفلاسفة القدامى والمحدثين في المشكلات الفلسفية الكبرى المتعلقة بالخلق والوجود والمكان والزمان والمادة والتطور وغيرها. وشمل العرض عشرة من العباقرة هم: بيكون وديكارت وباسكال ومالبرانش وسيدنوزال ولوك وليبنز وهيوم وكانت وبرجسون، موضحًا، مدى تلاقيهم مع فلاسفة المسلمين، ثم خَصَّ دارون والدارونية بحديث خاص يوضح الفرق بين التحول والتطور، وذكر ما قاله الشيخ حسين الجسر مؤلف «الرسالة الحميدية» التي رد فيها على أصحاب المواقف المخالفة للدين، وضمنها آراء جديدة في مذهب النشوء والارتقاء الذي ظهر في عصره، خاصة وأنه كان على اطلاع واسع بحقائق العلوم الطبيعية واستعان حسين الجسر في عرض آرائه بآيات من القرآن الكريم ليبرهن على أن دين الإسلام لا يتصادم، ولا يمكن أن يتصادم، مع العلم ، إذا تأيد هذا العلم بالدليل القاطع، ويصرح الجسر (الأب) بأنه لا فرق، في نظر الدين، بين أن يكون إيجاد الله للعالم بطريق «الخلق الدفعيّ» أو «الخلق المتمهل» أو بطريق النشوء والارتقاء، فالخلق على كل حال، تم بإرادة الله وقدرته وحكمته، وليس أحد المذهبين بأدل على الله من الآخر، فالجسر هنا لم يسدّ على العلم الباب، باسم الدين، بل تركه مفتوحًا عندما أكد القول مرارًا أن مذهب النشوء والارتقاء، عند ثبوته ثبوتًا قطعيًا، لا يناقض الدين في شيء، ويمكن الأخذ به،

وتأويل النصوص الدالة بظواهرها على مذهب الخلق.

وإلى هذا السمو في التفكير أشار المستشرق «تشارلز آدمز» في كتابه «الإسلام والتجديد» بقوله: «بينما كان المؤلف السنيّ فيما مضى من الزمان لا يعبأ بالآراء العلمية، وكان يرى أن يقاومها بحدّ السيف فإن الشيخ حسين الجسر لم ير هذا الرأي، وإنما ذهب إلى أنه قد انقضى الوقت الذي يستطيع فيه المسلمون أن يغفلوا ما يوجَّه إلى عقيدتهم، فأخذ يدلل على أن الإنسانية الحقة، والخلق الكريم، والعقل السليم، تتجلى بأسماء مظاهرها في عقائد الإسلام وأحكامه، وانبرى للردّ على ما أثاره علماء الغرب من شبهات كثيرة تقدم على أساس فلسفي أو مادي، وتعرض في هذا السياق لمذهب دارون.

٩- في ليلة الامتحان سأل الشيخ الموزون تلميذه الحيران: هل أدركت ما هو الغرض الذي كنت أرمي إليه، في كل ما قررته لك، وما هي الغاية العظمى التي أريد أن أصل بك إليها؟ فأجاب «حيران»: نعم أدركت يا مولاي الغرض الذي كنت ترمي إليه أكابر الفلاسفة، وتلاقوا عليه، لا يتنافى أبدًا مع الدين الحق، في إثبات وجود الله، بل يؤيد هذا الإثبات بالنظر العقلي الخالص، الذي تتلاقى فيه عقول الأكابر من رجال الدين مع عقول الأكابر من الفلاسفة، على أدلة واحدة، لتتخذ من فرط إجلالي لهؤلاء الفلاسفة، وسيلة لإيصالي إلى الإيمان بالله عن طريق الأدلة والبراهين التي اعتمدوها بالنظر العقلي الخالص، البعيد عن كل ميل مع الدين، بعد أن رأيت أنني منصرف عن هذه الأدلة والبراهين نفسها إذا سمعتها من أفواه رجال الدين، ولتريني أن الدين الحق لا يتصادم ولا يتنافى مع حقائق العلم التي قام على صحتها البرهان العقلي القاطع، لأن الدين الحق، يجعل للعقل الكلمة الفاصلة العليا، في معرفة الحق؟ وهذه هي الغاية العظمى التي أردت أن تصل بي إليها.

وفي ليلة الامتحان قال الشيخ الموزون لتلميذه الحيران، بعد أن ذكر له قضايا

حسابية بسيطة جدًا يقوم عليها البرهان العقلي القاطع، ومع ذلك كلَّ العقل عن تصورها، حتى بعد الحساب: «ذلك لأن عقولنا خلقت عاجزة عن تصور كثير من الأشياء، ولكنها تستطيع أن تحكم بوجودها من طريق «البرهان العقلي القاطع» فالتصور يا حيران غير «التعقل» فقد تستطيع تعقل شيء ولا تستطيع أن تتصوره لأن التعقل يعتمد على بديهيات أولية يأخذ العقل في ترتيبها وتركيبها واستنباط بعضها من بعض، وبناء بعضها على بعض فيصل إلى حكم عقلي قاطع قد لا يستطيع تصوره.. والعلم الحديث -اليوم- يقر هذه الحقيقة التي ذكرتُها لك عن الفرق بين إمكان تصور الشيء وإمكان تعقله، فلا يبالي بعجز العقل عن التصور، ويعتمد على التعقل وحده، لأن الحقائق العلمية أصبحت في مجالاتها وكمياتها وأعدادها فوق «التصور». ولكنهم يحسبونها ويعرفونها ويحكمون عليها عن طريق التعقل... هل فهمت الآن يا حيران معنى قول العلماء والفلاسفة أن الخلق من العدم ممكن تعقله، ولو كان العقل يستبعده أو يكل عن تصوره؟.

يقول حيران: «حقًا إن الفلسفة بحر على خلاف البحور، يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه، والأمانة والإيمان في لججه وأعماقه»، كما يقول مولاي، وحقًا إنها، كما يقول «باكون»: القليل منها يبعد عن الله أما الكثير منها فيرد إلى الله.

١٠- تقول الدكتورة بنت الشاطئ في مقالها الذي أشرت آنفًا: «ثم تمهل الشيخ برهة في» ليلة الامتحان» حتى إذا اطمأن إلى أن فتاه حيران قد اجتاز مرحلة الشك والحيرة، وظفر بإيمان العقل، مضى يتلو عليه من «كلمات ربي» آيات بينات، يخشع لها العقل الحرّ المستنير، مثلما يخشع لها الوجدان المؤمن المطمئن، وكانت خاتمة المطاف وصية الشيخ إلى فتاه، تلقى نظرة شاملة على أشواط الرحلة المثيرة، فإذا الحق بين، والضلال بين، وإذا كل ما أجهد الإنسانية من صراع بين العلم والدين، إنما كان مصدره في الحقيقة: جمود شيوخ يعيشون في عزلة عن العلم والحياة وراء أسوار صماء

تحجب عنهم الآفاق الرحبة الحافلة بآيات للقدرة يهدي إليها العقل البشري الحر، ويكشف عنها العلم في دأب وإصرار، ولا يدركها إلا الذين ينطلقون أحرارًا مستجيبين لدعاء السماء ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣] وغرور متفلسفين ومتعالين، يتشدقون بكلمات خاوية هاذية، طنانة جوفاء، عن تضاد بين العلم والدين، وحظهم من أولهما قشور، ومن الآخر هباء.

أما الراسخون في العلم، فيوقنون أن الإيمان حق وضرورة. وأما فقهاء الدين، أحرار الفكر والعقل، فيؤمنون أن الاطلاع على أسرار العلم فريضة، وضرورة لكمال الدين ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨]...

وتُنَبِّه بنت الشاطئ هنا إلى ملحظ جليل وخطير، «فالأستاذ الشيخ الجسر، حين حشد الأدلة العقلية للإيمان، وتتبع الشواهد العلمية، رياضية وطبيعية، المؤدية له، لم يغب عنه أن وعي هذه الأدلة إنما يحتاج أول ما يحتاج إلى شغف بالحق، وإلى فكر متحرر من أغلال التعصب، ومن الخضوع لسيطرة الوهم الشائع بأن العلم والدين ضدان لا يجتمعان وحيث تتبع فضيلة ما في القرآن الكريم من آيات محكمة، مطابقة لأحدث ما وصل إليه العلم لم يخطر بباله لحظة أن يدعو إلى القولة الساذجة بأن القرآن الكريم جمع كل نظريات العلوم، بل حرص الشيخ على أن يحرر فتاه من التأثر بتلك البدعة الساذجة وكان في نفسه منها شيء جعله يقول لشيخه: إني سمعت من بعض العلماء أن القرآن لم يترك شيئًا من العلوم إلا أشار إليها فكان الجواب صريحًا: كلا يا حيران كلا فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية، ولا من مقاصده إرشاد الناس إلى العلوم الكونية من باب التعليم، ولكن ما ورد فيه من الآيات، إنما ورد بقصد التنبيه إلى ما في خلق العالم من آثار الإرادة والقدرة والعلم والحكمة، والإتقان والاتزان، الدالة على وجود الله النافية للتكوين بالمصادفة، ولم يقصد به تقرير العلوم الكونية.. فإذا جمعت هذه الآيات المحكمات، مع ما أيدها من

حقائق العلم على صعيد واحد، ظهر الحق الذي يستحيل على الشك أن ينازع فيه اليقين وإلى هذا قصد الشيخ، حين جمع أدلة القرآن وأدلة الفلاسفة مع شواهد العلم، على صعيد واحد، لتظهر الصورة الشاملة للحق بكل جلالها وجمالها».

وخلاصة القول، إن كتاب «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والدين» حظي بتقريظ العشرات من العلماء والأدباء ورجال الفكر بالعالمين العربي والإسلامي، وذلك لما كان له من أثر واضح في التكوين الثقافي الصحيح لأبناء الأمة، وهو جدير بأن يعاد طبعه ونشره وإشهاره، لما له من دور توجيهي متميز لشبابنا العربي والإسلامي، ولكل الحائرين على طريق الإيمان الخالص لله تعالى، بل إن ترجمته إلى اللغات المنتشرة في عصرنا تسهم كثيرًا في مكافحة اللادينية المتزايدة في حضارة العصر المادية.

*****

obeikan.com